

الوافي في الوفيات

تأخَّرْتُ لِمَّا قَدَّ مَتَهُمُ عُلَاكُمُ ... عليَّ - وتأبى الأُسْدُ سبقَ الثعالبِ .
تُرى أين كانوا في مواطني التي ... غدوتُ لكم فيهنَّ - أكرمَ نائبٍ ؟ .
لياليَ أتلو ذكركم في مجالسٍ ... حديثُ الوَرَى فيها بغمزِ الحواجبِ .
ومنه قصيدة مدح بها صلاح الدين وسمَّاهَا : شكَاية المتطلِّم ونكاية المتألِّم : .
أَيَا أُذُنَ الأيامِ إنَّ قَلْتُ فاسمعي ... لنفثَةِ مصدورٍ وأزَّيَّةٍ موجَّعِ .
وعَيِّ كلَّ صوتٍ تسمعين نداءهُ ... فلا خيرَ في أُذُنٍ تُنادَى فلا تَعَيِّ .
تقاصر بي خَطُّو الزمانِ وباءُهُ ... فقصَّ - من ذَرعي وقصَّ - أذرُعِي .
وأخرجني من موضعٍ كنتُ أهْلَهُ ... وأنزلني بالجور في غير موضعِ .
بسيفِ ابنِ مهديٍّ وأبناء فاتكٍ ... أقصَّ - من الأوطان جنبي ومضجِي .
تيمَّمتُ مصراً أطلبُ الجاه والغنى ... فنلتُهما في ظلِّ عيشٍ مُمَدَّعِ .
وزرتُ ملوكَ الذَّيْلِ أرتادُ نَيلهم ... فأحمدُ مُرتادي وأخصبُ مربعِي .
وفزتُ بألفٍ من عطيةٍ فائزٍ ... مواهبهُ للصنع لا للتصدُّعِ .
وكم طرقتني من يدٍ عاصِدِيَّةٍ ... سَرتُ بين يقطى من عيونٍ وهُجَّعِ .
وجاد ابن رُزَّيْكِ من الجاه والغنى ... بما زاد عن عزمي رجائي ومطمعي .
وأوحى إلي سمعي ودائع شعره ... فخبَّرتُهُ مني بأكرم مودَعِ .
وليست أيادي شاورٍ بزميمةٍ ... ولا عهدُها عندي بعهدٍ مُضِيَّعِ .
ملوكُ رَعَوٍ ألي حُرْمَةٌ صار نبتُها ... هشيمًا رعتُهُ النائباتُ وما رُعي .
ورُدَّتْ بهم شمسُ العطايا لوفدهمُ ... كما قال قومُ في عليٍّ ويوشعِ .
مذاهيبهم في الجود مذهبُ سُنْدِيَّةٍ ... وإن خالفوني في اعتقادِ التشيُّعِ .
فقلُّ لصلاح الدين والعدلُ شأنهُ ... من الحاكمِ المُصغي إليَّ فادَّعي .
سكتُ فقالت ناطقاتُ ضرورتي : ... إذا حلقاتُ البابِ عُلِّقن فاقرعِ .
فأدَّلتُ إدلالَ المحبِّ وقلتُ ما ... أتاني بعفوِ الطبعِ لا بالتطبُّعِ .
وعندي من الآداب ما لو شرحتُهُ ... تيقَّنتُ أني قدوةُ ابنِ المقفَّعِ .
أقمتُ لكم ضيفاً ثلاثة أشهرٍ ... أقول لصدري كلاماً ضاق : وسَّعِ .
أُعَلِّلُ غلما ني وخيلي ونسوتي ... بما ضقتُ من ذرعٍ ضعيفٍ مُرْفَّعِ .
ونؤوا بكم للوفد في كلِّ بلدةٍ ... تفرِّقُ شملَ السائلِ المتورِّعِ .
وكم من ضيوفِ البابِ مِمَّنْ لسانُهُ ... إذا قطعوه لا يقوم بإصبعِ .

مشارعُ من نعمائكم زرتُها وقد ... تكدّر بالإسكندرية مشرعي .
فيا راعيَ الإسلام كيف تركتنا ... فريقي ضياعٍ من عرايا وجُوسّع ؟ .
دعوناك من قربٍ ويُدعدٍ فهب لنا ... جوابك فالباري يجيبُ إذا دُعي .
إلى [] أشكو من ليالي ضرورةٍ ... رجعنا بها نحو الجناحِ المُرجّع .
قنعنا ولم نسألك صبراً وعفّةً ... إلى أن عدّ منا بُلغةَ المتقدّع .
ولمّا أغصّ الريقُ مجرى حلوقنا ... أتيناك نشكو غُصّةَ المتجرّع .
ألم ترّ عني للشافعيّ فإنّسه ... أجلّ شفيعٍ عند أعلى مُشفّع .
ونصري له في حيثُ لا أنت نصري ... بضربِ مقيلاتٍ ولا طعنِ شُرّع .
لياليَ لا وقتُ العراق بسجّ سجّ ... بمصرَ ولا ريحُ الشّامِ بزّزع .
كأنّي بها من آلِ فرعونَ مؤمنُ ... أُصارع عن ديني وإن خاب مصرعي .
أمن حسنات الدهر أم سيّئاته ... رضاك عن الدنيا بما فعلتُ معي ؟ .
ملكّت عنانَ النصرِ ثمّ خذلتني ... وحالي بمرأى من عُلاك ومسمع .